من بدل للناس وجوهاً وألسنة إيرانية؟

الأهـــواز... وصفويـــة أخـــرى

مظفر النواب

(ما زالت الطريق صعبة إلى إيران)، كنت اقتدح هذه العبارة في جوار كل أزمة مع هذا الإقليم، حتى غدت لدي أشبه بمثل احتدم على ضفاف الجيل الذي انتمي إليه، سكبت حروفه وجروحه ثلاثية السياسة والدين، وأحياناً الحب.

مثل له عمر طويل، أخدع نفسي بأنه نز عن قلمي في لحظة ارتداد الذات إلى وعيها، إذ يغدو الارتداد (هذا المفهوم الجانح) سموا، إذا ما كان بإزاء ارتداد أيدلوجية ما ونهايتها.

ارتداد إلى حائط، ملامحه وأخاديده تحاول أن تتنازل عن مسلمات انبجست في صبانا مع النشوة الأولى للثورة الدينية في إيران، ولا سيما إن ذاك حدث للنفس في زمن أكاد لا أجد حينها في الناس إلا كلمة (سيد قطب) الآخذة به إلى رؤيته في التكفير، بأن المجتمعات وحكوماتها خرجت على إرادة الرب.

جاء بي إلى هذه الطريق ثانية غير ما جاء بي أول الروح، في الأولى ثائراً يبحث عن وجع صوفي وغدوة خمينية يتنفس بها ضحى التضحية، شاباً ملء روحه الدين - وإن صدقت عبارة: ملء دينه الروح، فهي أقرب إلى قلمي سيمولوجيا - وملء بصره العمائم ورائحتها الكافورية، حتى إذا تسفر الليل كانت رائحتها تزكم أنفي في ما بعد لأهرب بجلدي عن الحدود دون أوراق.

الغريب أني دائماً أعبر الحدود من دون أوراق وكأن القدر - بل بدأت أعيش حدسية ذلك - أراد لي (أنا من لا أملك إلا الأوراق دائماً، وهي منحتي الوحيدة للناس) أن افتقدها عند أبواب الحكومات.

ولا بأس، فمع هذا السطر أهدأ مع ذاتي واثقاً بها، كما هدأ علي شريعتي حين تكفيره سنة وشيعة. في هذه الأزائية بين الحكومات والناس مع ذاتي، استطيع أن أنحت عنها مقولة قد تصل بها إلى تقعيد يجدي كثيراً مع حفاة الأرصفة والأرغفة: ثق بنفسك حين تمنح الناس ما تسلبك الحكومات.

لن أدخل في خصوص مجيئي الثاني لأسباب تلح وجوديتي في أن أرسمها لوحة تأبى إلا أن تكون عنواناً لإحدى روايات عبد الرحمن منيف في وجعه الشرقي، وأتمنى ألا يفاجئني قلمي بحروفها، إذ مشكلتي أني لا أمسح ما يخطه قلمي، وهذا عهدله منذ أن ولدت معه يوم الميثاق، ففي عقيدتي أن ما يكتبه هو ما ينذبحه في هيكل الروح، ولا يعاد القربان كما نعرف، ولا سيما مع الآلهة.

دخلت أول مرة إلى إيران وأنا انتظر ديناً خلته خلاصاً للناس والأرض. دخلت لا أحمل إلا ثقافة أكاديمية ألجأني إليها أبي قسراً، ومنظومة حكمية أدبية كنت غارقاً فيها، تقود دفتها - تلك التي انقذتني بعد حين - وجهة انطولوجية لا شعورية تشاغفت بها الروح قبل أن أدخل إلى كل تلك الدوغمائيات البغيضة المستلبة لوعيي ووجودي وصيرورتي للناس.

من أول يوم، بدأت أدخل زقاقاً بعد زقاق من أزقة العمائم، نالت من أرث الثورة في ذاكرتي البريئة، وهكذا توالت، إلى أن بدأت أطلب خلاص ذاتي بعد أن كنت اطلب خلاص الناس، أعانتني على ذلك تجربتي المتأزمة وجودياً معهم، لتفضي بي في كل مرة إلى قراءة جديدة للدين ورجال الدين.

وهكذا، بدا لي - ابستيمولوجيا - أن التجربة الشعورية للإنسان - كما عرفتها منهجاً بعد ذلك مع علي شريعتي والبعض القليل من الإسلاميين والوجوديين - تتجاوز التجربة المعرفية في التحولات الآيديولوجية لدى الذات (انقلاباتها وتحولاتها) لتحكمها المناطق الوجدانية دون العقلية، وبالتالي، تأكد لي هنا وجه آخر من الحدس الوجداني لماكس شيلر، وتنفست صدقه وسط الخصام الدائر بين الذاتيين والعقليين.

لن أطيل في درب الحفاة للأيام الخوالي، وإلا فالذات دائماً تجر خطاها إلى صحارى رحيلها الأول، وتتيه عن قافلة يومها.

من ضمن ما استجد لي - بعد وعيي لكثير من الزيف الديني على حساب الإسلام في عموم العالم الإسلامي - قضية الأهواز، بعد أن تمنى علينا مسؤولون في السفارة الإيرانية في سوريا مقاطعة مثقف أهوازي كان صديقاً لي، تراكضت العمائم على مقاطعته خوفاً على دكاكينها. وفتها، لم تكن بي إلا جراحات خاصة من إيران عن أخوتي اللاجئين هناك، أما الأهواز فلا وجع معي إلا نخيلات عربية يرضعن منها بنات فارس ويلعننا مع قذف نواها، إن لم يرمين بها على جدائل صبية عربية. والمشكلة، أن الدم العربي ما زال يجف، دون كل الدماء، على أطراف جباهنا، كرما واستنكافا من أن ينزل على تراب ما زال مستلباً في لحظات المحنة، وأن تلبسنا بالعار - ملء العار - يوم استبدلنا بقصور بغداد خياما.

بدأت أعي الموضوع برواية من المثقف الأهوازي، كان يبرر بها أمامي اتخاذه هذا الطريق، وهي رواية عما حدث لأخيه وقتذاك حين رزق بطفلة منعت السلطات الإيرانية أن يكون اسمها عربياً، وعلى قوله: قس على هذا.

هكذا، شغلني الواجب كمثقف ديني والحساسية تجاه أمور كهذه عن أن أعرف أشياء أخرى وأن أجد لكنستي وسخاً من أوساخ تلك الأزقة، إلى أن جمعتني المصادفة بطالب أهوازي في جامعة دمشق غدا تلميذاً لي بعد ذلك وأقرب ما يكون إلى نفسي. تبدى لي مع هذه المصادفة الأمر بوضوح أكثر وبجرح وجودي أكثر إيغالاً في نفسي تجاه هذه الأزمة، بما كان من تصرفات السفارة الإيرانية معه بمضايقات - بدلاً من أن تكون السفارة خادمة لرعاياها - كانت ما لا استطيع أن أصفه من تلك الاختناقات التي عشتها في اضطهاد صديقي الأهوازي، الذي لا يحمل ذنباً إلا كونه عربياً.

مضايقات شتى مورست على إنسان بريء بعيد كل البعد عن السياسة، حتى إني لطالما أردد أمامه واصفاً إياه بـ(الحمار)، وهو يبتسم ابتسامة خجلة خائفة. فمع كل سوط يوجه له، يأخذ خطوة عبودية أخرى، تمارس عليه باسم الله.

مضايقات منعني الأهوازي البريء أن أكون مسلماً عربياً أحمل بعض فروسيتي خوفاً على أخوته داخل إيران. صبرت نفسي بوعد ليوم تظهر فيه بعض تلك الفروسية، وإلا، فالمثقف الديني - دون أن يعي صهوة قلمه - يسقط تحت حوافر التاريخ، كما ألجأني ذلك على قراءة التاريخ بوجع شعوبي كما ناب عنا الإسلامي الحر هاني فحص.

وهكذا اشتد لدي الأمر، ولا سيما أن قضيتي الثقافية الأساسية هي التجديد الديني وتخليص أبريز الدين من رجال الدين، فكانت قضية الأهواز مثالاً بارزاً أمامي على انتكاسة التيار التقليدي، ولا سيما في مسألة الحكم وخطورتها بوصفها محوراً وجودياً في صيرورة الإنسان نحو الله كغاية خلقية.

حتى وإن ناقشت مسألة الأهواز عبر مفهوم (الأقلية) - بعيداً عن الاحتلال والاغتصاب - فالأمر يبقى خلفاً دينياً فاقعاً، ولا سيما أن شيئاً من الطريقة الإسرائيلية - بنكتتها التأريخية التقليدية في حق فلسطين - تمارس هناك.

بعيداً عن تلميذي الأهوازي، وعن آلامي مثقفاً مسؤولاً، وعن عروبتي، فهويتي هي الإسلام، أريد أن أبقى في حدود مجالي المعرفي وأهدافي التجديدية للدين وخصامي ومعاركي مع التيار الانتكاسي والتمييز بين شريعة البشر وقانون الله، بين دين الفقهاء والتجار والاقطاعيين والسلاطين ودين الله والمستضعفين، إذ لم أجد خروجاً فاقعاً على الإسلام كما هو ممارس مع شعب الأهواز، استبدادا واستلاباً واضطهاداً وظلماً.

كتب الدكتور حسن حنفي في جريدة (الشرق الأوسط) مقالاً عن الأقليات، أصل فيه للمسالة بمنهج فينومينولوجي معتاد. يخال البعض أن المقال افتقد إلى الرصانة المعتمدة في البحوث التأصيلية من الناحية المرجعية على الوجه التقليدي ولا سيما في منظومة المسلمات المنهجية، في حين يجد الواقف على نهاية المقال وحيا وجدانياً يفهم من خلاله أن حنفي - على نحو ما أفهمه - كان متعمد الابتعاد عن ذلك لافتناعه بمنهج وأسلوب يفرضان نوعا من الخطاب البرهاني يتجاوز الحبكة التجريدية التي تدوم مع الشكل المنطقي على حساب المضمون.

لا يمكنني - تجاوزا على أوراق الأهواز - أن أذهب مع جدوى المنهج الشخصي لحسن حنفي في توظيف معارفه في الوجود المشخص بين الناس منهجاً اعتاده في صياغة المعرفة عند اعتاب المستضعفين، اسير عليه أنا ميثاقاً مع ثلاثية المثقف النبوي لعلي شريعتي (الإيمان، التضحية، المسؤولية)، وهذا هو ما دفعني إلى هذا المقال لكي أشعر بأني باق على هذا الخط. أما إذا رأوا في كلمات شريعتي أنها شيطانية فلا عجب في ذلك، فلقد حوروا كلمات القرآن قبلها.

كانت قناعتي قبل عدة أعوام - بوصفي إسلامياً ابحث عن دين الله متخلياً عن دين العمائم - بأن وجه الإشكالية الإصلاحية لا يمكن أن يحل طالما الأسس والمسلمات هي هي، ولا يمكن الوقوف على فلسفة الدين - بعيداً عن الإدعاءات المنهجية معها، التي نجدها أحياناً موغلة في السلفية - بوصفها خلاصاً معرفياً، فلا يمكن للعقل والوجدان المكون انقاذ نفسه من دون التخلي عن المكون مضاهاة لفكرة التخلي والتحلي والتجلي في التيار الصوفي، هذا من جهة، والجهة الثانية للأزمة هي رجل الدين، مع أن الطريق للإصلاح يبدأ من إشكالية سايكولوجية مع رجل الدين، وذلك لايماني بمقولة شريعتي (لا تسلبوا رجال الدين من الناس، وإنما أسلبوا الناس من رجال الدين)، اي اسكتوا امامهم وتكلموا مع الناس.

ومع أن الرجوع إلى هذا الأسس التجديدية للفكر الإسلامي سيأخذنا إلى وجه بعيد جداً عن النتاج التقليدي ويكشف أوساخاً نتنة تخالف نظافة الإسلام في كل وجوده الإلهي على وفق الانطولوجية الدينية التي نعمل عليها، فإني اكتفي بعين المنتج الفقهي التقليدي، فهو - وحسب - يكفينا ليخرج من يمارسون الطريقة الإيرانية مع عرب الأهواز من إدعاء الشرعية الإسلامية لسلوكهم هذا - مع احترامي لكثير من الزملاء والمفكرين الإيرانيين الذين لهم خدمات للفكر الإسلامي صعب على غيرهم أن يمر بها تنويراً -، وذلك لكونها تمارس استلاباً (للأرض والإنسان)، بل احتقاراً وسلباً للشخصية وتكريساً لأنماط يبرأ منها الإسلام.

ويمكن احتواء المسألة شرعياً بنزول واقعها المخزي مصداقاً مخالفاً لقمة المقاصد الشاطبية الخمسة المتعمدة من المدرسة الشيعية الأمامية أيضاً (الدين، النفس، العقل، العرض، المال) بما يمكن تناول الحالة الأهوازية بها. ووجوه هذه المفاهيم هناك وانتفائها بأيد تخرج من ظلام تلك الأزقة هو على النحو الآتي:

(الدين وحمل الناس به بغضاً لاشعوراً بهذه الممارسة، النفس مضطهدة، العقل مستلب، الكرامة مهانة، خيرات الأرض لغير أهلها)، وهذه مصاديق يطول عرضها، لذا يكفي هنا أن نتجاوز تأكيد التعدي المقصدي وحالة خنقها من أطراف تمارس الإسلام باسم هذه المقاصد.

ويكفي هنا، ايضاً، تحسس فساد السلوك السلطوي إسلامياً مع الأهواز في بعض لقطات من الواقع البائس، يلمح ظلامته الجمهور العريض، لكون حديثنا له، قبل كل جهة، فالناس هم شاطئ المثقف، متكئين على وحي الحسن والقبح العقليين قاعدة تأخذ مداها المثمر في شرط الوضوح منهجياً إذا ما طورناهما ليكونا وجدانيين لا يخلو منها فرد، بعيداً عن أن يحتكرهما فقيه أو فيلسوف.

هكذا عاينت وتأكدت:

- أن الأهوازي لا يجوز له أن يرتدي زيه العربي.

- ولا يجوز أن يسمي أولاده بأسماء عربية.

- ولا يجوز أن يشيع لغته في الأماكن العامة، بل لا يجوز أن يتكلم بلغته.

- لا يوجد هناك مقرر دراسي يتناول اللغة الأم، ولا أية صحيفة باللغة العربية.

- معظم - بل جميع - المسؤولين الكبار في إقليم الأهواز والماسكين بزمام الأمور من غير العرب.

- النفط والغاز الذي يتمتع به الإقليم دون باقي الإقاليم لا يشعل قنديلاً في كوات قراهم، إذ ما زالت القرية قرية هناك، وتذهب هذه الخيرات لغير أهل هذه الأرض.

- الأهوازي العربي يسمع كل يوم كلمات نابية فجة في حق عروبته وكرامته، حتى أن الحجة القديمة في أن نبي الأعاجم هو نبي عربي ذهبت مع الريح - جاء هذا الوصف في سياق مدحي قرآنيا - وأن أمام المذهب لهذا الإقليم وعملاق الإنسانية هو عربي.

- في المحاكم، إذا كان خصمك عربياً فأنت رابح.

لا تخش من أن المتفوق الأول دراسياً يفوقك في مراكز الدولة أو في المنح الدراسية، فالأولوية دائماً لغير العربي.

لا أعلم هل نحتاج إلى فقيه لتأكيد منافاة هذه الصور السلطوية لمبادئ الإسلام. لو كان ذلك من الإسلام فأنا أول شخص يعلن براءته من هذا الدين، فهذا ما أهملته قبل قليل مع المقاصد الخمسة احتكاماً، وما يمكن أن امتد معه، ولو بحدود مفهوم الملكية بين (الوجود والحدود)، وصور تاريخية، وأسس قرآنية.

ولكني اعتقد أن مسلماً بسيطاً يفهم دينه من جدته رحمة ونعمة على العالمين لا يمكن أن يرى في صورة كهذه - مع مجموعة بشرية تريد، في الأقل، كرامتها وتأريخها، وليأخذوا ما شاؤوا من خبزها، فالأهوازي لم يئن يوماً على نفطه، وكل الذين التقيتهم في سفري الثاني إلى الأهواز كانوا في أزمة كرامة مع الإيرانيين لا غير - إلا خيانة لمبادئ الدين وقسوة على الوجع الإسلامي في أيامه هذه، أو ما يمكن أن أطلق عليه (القراءة المتوحشة للإسلام)، وهي تسمية أطلقها معلم لي عن اتجاه من التيار الإسلامي، وهي عين ما سماه علي شريعتي (دينا ضد الدين).

لا اعتقد أن ما نزف به قلمي هنا هو استيفاء لحق مثقف له حصة خمس سنوات من مذكراته في إيران، عانى منه وجوده، ولا أنها طرف عقد تجاري يمارسها قلم مأجور من جهة مستفيدة، فنحن أهل الرصيف والنزيف والرغيف، ما هي إلا ممارسة لفلسفة الموقف التي لا أعرف غيرها شرطاً وجودياً، يعذرني عليها أصحابي، وقد وعيتها من قوانين الله وسننه في مجتمعات التأريخ.

ولأني يوماً نسيت قرب الكارون عيوني - كما نساها النواب قبل أربعين عاماً - تتعذب ببريق كحل عربي ترسم به شطآنه قافية عربية، عز علي أن أتركها، فتركت عيوني هناك.

علّ مياه الكارون تقذف بها لصياد مجذافه في شط العرب، فالأنهار - مثلي - هي الوحيدة في هذه الأرض التي تجتاز الحدود دون أوراق.

عبد الرزاق الجبران

سقـــوط الدومينـــو صـــدام

محمود حسن عباس

نظرية الدومينو أو سياسة الحلقات المتسلسلة والمترابطة والمتداخلة، نظرية معروفة منذ زمن بعيد، فحواها تشبيه البنيان السياسي المحلي أو الإقليمي أو الدولي بلعبة الدومينو، ليس بالطريقة التي تمارس في المقاهي والتي تسمى بـ(العدلة أو الأزنيف)، ولكن بطريقة ثالثة لطالما عرضت في التلفزيونات، حيث يقوم اللاعب المنفرد بتصفيف قطع أحجار الدومينو بشكل متجانب ومتجاور ومتسلسل، وقد وصلت أرقام هذه الأحجار في آخر اللعبة عرضت على شاشات التلفزيون إلى أكثر من ربع مليون قطعة، وقد صرفت اللاعبة الصينية أياماً وليالي في إكمال هذا العمل الشاق، إذ قامت ليس بتصفيف هذا العدد الكبير من أحجار الدومينو فقط، بل وعملت منها أشكالاً هندسية بديعة وعجيبة، فتشبيه البنيان السياسي بلعبة الدومينو تلك تشبيه فيه إبداع وروعة ومعنى، وفي تلك اللعبة عندما يسقط حجر واحد على جاره تتوالى سلاسل السقوط، والملفت للنظر في هذه اللعبة هي النتيجة، وهي تتراوح بين ثلاث احتمالات، الأول أن تستمر سلسلة السقوط حتى آخر حجر، والثاني بأن تتوقف في نقطة معينة ويصاب اللاعب باليأس ويتخلى عن اللعبة، والثالث أن تتوقف سلسلة السقوط إلى النهاية، ويلاحظ بأن السلسلة تعتبر دائرية فالبدأ من اليسار أو اليمين لا تؤثر على سلسلة الاسقاطات، ويمكن تشبيه سقوط صدام بلعبة الدومينو تلك، فسقوطه قبل عام اعقبته سلسلة من اسقاطات وتداعيات وإفرازات استمرت وربما قد تستمر لسنوات أخرى، وأن أفضل طريقة لعزل وفصل وتحديد تلك الاسقاطات والتدعيات والإفرازات هي بالوقوف عندها واحدة تلو الأخرى:-

١- الغزو، بصرف النظر عن التبريرات الأمريكية لغزو العراق بحجة البحث عن أسلحة الدمار الشامل أو تعاون صدام مع القاعدة، فإن عملية غزو العراق يؤشر نقطة تاريخية جديدة، بأن عصر الغزوات والاستعمار والكولونالية قد انتهى، فالغزو الأمريكي والمصمم لغزو العراق عبر حجة صدام، إذ لم يأخذ العبرة من صدام نفسه بأن هو نفسه اعتبر منتهياً عندما غزا الكويت بقوة عسكرية كانت استعمارية بصرف النظر عن اية تسميات، فالعبرة الأولى لغزو الكويت، هو أنه ليس شرطاً في عالم اليوم والذي بات شبه قرية، أن يهب الشعب المعني وحده لطرد الغزو الأجنبي، ولكن شعوباً أخرى شقيقة وصديقة وجارة وإقليمية وقوى دولية ذات مصلحة، كلها تقف ضد الغزو، فضلاً عن الرأي العام الدولي ونصوص القوانين والمواثيق واللوئح الدولية، ناهيك عن مقاومة الشعب المعني نفسه، فأي غزو سيكون طريقه إلى الفشل، وبرغم بعض القبول العراقي والإقليمي والدولي للغزو الأمريكي في بدايته للأسباب المعروفة لطبيعة نظام صدام، إلا أن هذا التقبل لم يستغل لتحويل الغزو إلى إنجاز حقيقي يمكن أن يسمى بالفعل تحريراً، ففي النهاية اقتربت من مفهوم الغزو وابتعدت عن مفهوم التحرير، لذا فلا مستقبل له حتماً.

٢- نفس السياق والاتجاه في احتمالات الحروب قد تراجعت كثيراً بعد الحرب الأمريكية البريطانية - الصدامية، فالطرفان اعتقدا بان الحرب هي السبيل الوحيد للوصول إلى ما يريدان، فصدام مخطط الحروب ومحرضها وشاعلها الذي أراد لها أن تحرق الأخضر واليابس فحرقته هو أولاً، وفي نفس الاتجاه صارت الحرب وبالاً على أمريكا وبريطانيا، فلا يستطيع أحد أن يجزم على إنهما قد انتصرتا في حرب العراق، لأن ذلك بات أمراً مشكوكاً بكل المقاييس ولأكثر من سبب وسبب، والاتجاهات المعارضة للحروب في كل المجتمعات بدات تتصاعد بدرجة لا يمكن إنكارها، فالتظاهرات الحاشدة عمت العالم خلال العامين الماضيين، والأصعب هي معاقبة الشعوب لحكوماتها المؤيدة للحروب بسحب الثقة منها في أول انتخابات تلي الحرب، فالحكومات الديمقراطية بدأت تعد للألف قبل المشاركة في أية حرب، والحكومات الديكتاتورية أصبحت حذرة لأنها ببساطة اتخذت العبرة من حكم صدام، ففي ساعة الحرج تتعرض للعقاب بأن يسحب الشعب الثقة منها بعدم تأييدها في الحرب وعند ذلك تسقط الحكومة الديكتاتورية من تلقاء نفسها كما حدث لصدام.

٣- وتكملة لنفس سلسلة الغزو والحرب، فهناك مسألة الأسلحة المرتبطة بهما، فمنذ زمن بعيد يعود لثلاثينيات القرن الماضي عندما سلحت المانيا النازية نفسها سراً، ومن ثم غزت أوروبا وهددت باقي العالم ونشوب الحرب العالمية الثانية ومن ثم انقسام العالم إلى معسكرين والحرب الباردة ونهايتها وغزو صدام للكويت وما أعقبه وإلى يوم سقوط صدام، كان التسلح والمبالغة فيه سمة تطبع دول العالم جميعاً، ولو راجعنا أرقام التسلح التقليدي وأسلحة الدمار الشامل في تلك الحقب فإنها مهولة لا يصدقها العقل، ولكن قد يكون غزو العراق هو الحد الفاصل لتاريخ جديد لمسألة التسلح فهذه الحرب قد وضعت النقاط على الحروف، فبالنسبة للقوات الغازية يبدو أن التسلح ومهما بلغت من الجبروت والقوة ليس وحده بالعامل الحاسم لتحقيق النصر، ولجانب حكم صدام فإن كل تعاويذ الأسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل لم تفد النظام في البقاء، فسقط غير مأسوف عليه لأنه فقد رصيده الشعبي والإنساني أولاً، وكان لا يملك رصيداً اقتصادياً وحضارياً ثانياً، وكتداعيات لتلك الحالة، بدا واضحاً أن دول المنطقة والعالم قد اتعظت من ذلك الدرس، فبدأت تعيد النظر في مسألة التسلح وخاصة أسلحة الدمار الشامل، وقد سبقت تجربة سقوط صدام سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، فتلك الدولة كانت متسلحة بالأسلحة النووية ومن العيار الثقيل، ولكن تلك لم تفدها، وقد انهارت لعدم استجابتها لمقومات العصر، وخاصة وجود نظام اقتصادي قوي، والحقيقة الغريبة أن امريكا نفسها لم تستفد من دروس هؤلاء، صدام والاتحاد السوفيتي، والتي اعتبرت سقوطهما كان لمصلحة أمريكا، فظلت أمريكا تعتقد بأن التسلح الجبار والتفوق والحرب والغزو قادر على تحقيق اي هدف.

٤- وفي نفس سياق الغزو والحرب والتسلح، انكشف بنيان المنطقة الهش، فأنظمة الحكم في المنطقة العربية والإقليمية بنيت على اساس هذه النظريات، فاستعيض عن الديمقراطية والإصلاح والبناء الاقتصادي، بالتهيؤ للغزوات والحروب والتسلح وإن كان بعضها لفظياً، وبعد سقوط صدام تم الرجوع إلى الدواخل لبيان نقاط الضعف، وكان في مقدمة تلك النقاط البنيان الاقتصادي الهش، وبالطبع لا يمكن إجراء اي إصلاح اقتصادي بدون إجراء إصلاح سياسي، فكثرت مشاريع الإصلاح في المنطقة، وبما أن المنطقة لعقود طويلة ركدت بل تعفنت في ركودها، فلا يمكن التصور بأن الخطوات الترقيعية سوف تفيد، وفي نفس الوقت فإن الأوامر القادمة بالإصلاح من الخارج لا تفيد أصلاً، وللحقيقة فإن المشروع الأولي الأمريكي للعراق بالإصلاح والديمقراطية أشبه ما يكون بجمهورية افلاطون المثالية، ولكن طالما جاء من خارج العراق وبالقوة، فإن هناك شكوكاً كثيرة حول نجاحه ومصيره بل في ساعات معينة يدعو إلى الشفقة والرثاء فهو يبدو مشروعاً غبياً، ولكن أهمية سقوط صدام تأتي في كونها قد نبهت أو دقت ناقوس الخطر للمنطقة بأن تنهض.

٥- قد يبدو للبعض أن إسرائيل بعد سقوط صدام تعيش عصرها الذهبي، ولكن هذا وهم، ويستند إلى مجموعة حقائق سطحية، فاسرائيل تضرب الآن ضرباتها التكتيكية هنا وهناك، كما رأينا في اغتيال الشيخ أحمد ياسين، وتهديد عرفات ومحاصرة بلدات ومدن وغيرها من الأعمال، أما من الناحية الستراتيجية، فإن الأسس التحتية أو تحتها، للكيان الإسرائيلي تهتز بشدة قد لا يتصورها البعض، لأن هذه الأسس ببساطة هي نفسها التي اهتزت في المنطقة والعالم بشكل عنيف جداً، اي نظرية الغزو والحرب والتسلح، فخلال العقود الماضية، تشبعت إسرائيل من الغزوات والحروب والتسلح، ورجعت منها، وعندما يقال إن إسرائيل ستغزو جنوب لبنان مجدداً، فإن هذا غير صحيح مطلقاً، لأن إسرائيل سبق وأن غزت جنوب لبنان، وتشبث بالبقاء، ولكن لم تستطع البقاء فاضطرت للانسحاب تحت تهديد المقاومة والمجابهة العسكرية، ويقال أن إسرائيل تهدد دمشق، وهذا أيضاً غير صحيح، لأن إسرائيل سابقاً توسعت على حساب العرب، والآن جاء دور الإنكماش، لأن الغزوات والحروب والتسلح ليس بالعوامل الوحيدة التي تتحكم بالصراعات الراهنة، حيث المنهجية التاريخية تقود الدولة العبرية للانكماش إلى الداخل لغاية الزوال، وما الانسحاب من غزة، من جانب واحد إلا دليل على هذه الحقيقة، ولكن تطرف إسرائيل يشبه تطرف صدام في سنواته الأخيرة، وربما يمكن المقارنة بين ما سمي في حينه بمبادرة الإمارات باستقالة صدام وخروجه من العراق، بمشروع خارطة الطريق لحل القضية الفلسطينية، وسيأتي يوم تتاسف إسرائيل قبل غيرها لعدم قبولها بهذه المبادرة كما تأسف صدام من قبل.

٦- ضمن اسقاطات سلسلة الدومينو التي اعقبت سقوط صدام، انكشفت ساحة المعركة الدائرة على الإرهاب، فقد قيل الكثير عن الإرهاب ولا داعي لسرد النظريات حوله، ولكن بسقوط صدام انتقلت الكثير من القواعد والتكتيكات إلى العراق وأعقبت ذلك أعمال إرهابية كثيرة ومعها أعداد متزايدة من ضحايا العراقيين الأبرياء، إلا أن اصول وقواعد هذه اللعبة انكشفت الآن، فالإرهاب ليس بالظاهرة المعزولة، فقد أفرزته المنطقة وهناك كثير من العوامل المتداخلة، وقد يتساءل المرء. ومن على حق؟ الإجابة عن هذا السؤال صعب، فالإرهابيون يطرحون مطالب تبدو (عادلة وبسيطة) وذلك بكف العربدة الأمريكية والإسرائيلية، ولكن أساليبهم قذرة، والجانب الأمريكي يطرح مشاريع معقولة مثل الديمقراطية والإصلاح والتنمية، ولكن ايضاً بأساليب قذرة كاستعمال القوة والإكراه والإجبار، والجانب العربي يطرح أفكاراً مبدعة بأن الإصلاح والديمقراطية يجب أن ينطلقا من داخل المنطقة، ولكن ذلك بنيات سيئة، وبين هولاء وأولئك الخاسرون هم الضحايا الأبرياء، ولكن الآن بدأ فصل الخنادق، أن الميكافيلية والقول بأن الغاية تبرر الوسيلة لم تنجح مطلقاً، لأن الإرهاب خراج لمرض مزمن لا يمكن استعماله للتطعيم للوقاية من مرض مزمن آخر.

٧- وبعد سقوط صدام أعيد السؤال القديم، من نحن؟ وماذا نريد؟ أي السؤال عن الهوية، وهذا السؤال طرح على كل المستويات، الوطني والقومي والمذهبي والديني والعشائري.. الخ، فالذي يريد معالجة مسألته الوطنية، عليه مثلاً معالجة مسألة الأقليات والاثنيات، والذي يريد الإصلاح والبناء الاقتصادي، عليه بمعالجة الحالة السياسية، أي إشاعة الإصلاح والديمقراطية في البنية السياسية أولاً، وهذا السؤال نفسه يخص العمق القومي، الوحدة العربية مثلاً، فلا يمكن للأنظمة التي ترفض الإصلاح السياسي والاقتصادي بأن تسعى إلى الوحدة العربية، وبنفس الإطار يمكن التحدث عن وحدات إقليمية سواء كانت إسلامية أو على أسس اقتصادية، كتكتلات اقتصادية، وأبسط مثال هو محاكاة التجربة الأوروبية، فلم تحقق الوحدة الأوربية إلا أنظمة حكم ديمقراطية ومفتوحة للإصلاح.

٨- تم غزو العراق وإسقاط صدام بشعار أن خطراً داخلياً عراقياً يهدد داخله وخارجه، وهذا صحيح من حيث المبدأ، فصدام كان يمثل خطراً على العراقيين وعلى غيرهم كما ثبتت التجربة، وخلال السنين الطويلة للمجابهات منذ غزو الكويت، ظهرت التأثيرات الحديثة للمواصلات والإعلام، وبدا أن العام بات أصغر فأصغر، ولكن بعد سقوط صدام هذه الظاهرة اتخذت أبعاداً أخرى، فالمصائر أصبحت مرتبطة أكثر فأكثر فالمخاطر مثل الديكتاتورية والإرهاب والحروب والعوز الاقتصادي، أصبحت ظاهرة عامة تتأثر بها جميع الدول، لذا فإن الدول بدأت تميل نحو الاتجاه بالتجمع الإقليمي والدولي، فرأينا في أزمة العراق، كيف أن معظم الدول اتجهت وأرادت دوراً مركزياً للأمم المتحدة في العراق.

سجن "أبو غريب" اقامته الديكتاتورية وفضحته الديمقراطية !

د. شاكر النابلسي

-١-

فُجعنا وفُجع العالم من حولنا بالأفعال الشنيعة التي تم ارتكابها في سجن "أبو غريب" من قبل بعض المرضى النفسانيين من قوات التحالف. ويبدو أن سجن "أبو غريب" قد كُتب له أن يكون سجن الارهاب والعذاب من قبل الحكام المجانين كصدام حسين ومن قبل بعض المجانين المرضى من جنود قوات التحالف. ويبدو أن الدعوة لهدم هذا السجن الذي أقامته الديكتاتورية وفضحته الديمقراطية ومحو آثاره التي طالبت بها وزارة الدفاع الأمريكية دعوة جريئة ومفيدة للقضاء على هذا التاريخ من الارهاب والأعمال الوحشية.

ولو وضعنا جانباً هذه الموجة الانسانية والعربية من الاستنكار والتقزز والشعور بالذنب المبرر تماماً تجاه من تم تعذيبهم من الارهابيين في سجن "أبو غريب" وتأملنا في ظاهرة الاستنكار العالمي الغربي والأمريكي على وجه الخصوص من أكبر رأس في الدولة الأمريكية المسؤولة عن هذه الجرائم، وهو جورج بوش الى أصغر صحافي في جريدة نيويورك تايمز، لوجدنا أنه لولا الديمقراطية التي يتمتع بها المجتمع الغربي عامة، لما جرؤ جندي امريكي على تصوير ما جرى من فظائع، ولما جرؤ صحافي امريكي أو صحيفة امريكية على نشر ما ارتكب من آثام في سجن "أبو غريب". فالديكتاتورية هي التي بنت سجن "أبو غريب" ليس كمبنى، ولكن رمزاً للتعذيب الوحشي الذي مارسته الديكتاتورية الصدامية المنهارة. والديمقراطية وحدها هي التي اتاحت فضح جرائم "أبو غريب" وسوف تهدمه غداً وتهدم معه هذه التاريخ الأسود. والديمقراطية وحدها هي التي سمحت للصحافة الغربية بنشر الآ ن ما تم نشره من صور أليمة.

والديمقراطية وحدها هي التي دفعت رئيس الدولة العظمى الوحيدة في العالم للاعتذار المباشر وغير المباشر عن هذا العمل الشنيع علماً بأنه ارتكب في حق أعداء الديمقراطية وأعداء التقدم وأعداء الحرية في العراق، وأنه تم ارتكاب مثيل له بل أكثر شناعة قبل أسابيع عندما تم سحل جثث المقاولين الأجانب والتمثيل بجثثهم في الفلوجة ولم تتحرك أثناءها جميعة عربية أو اسلامية واحدة لاستنكار ما حدث إلا القليل القليل. بل ان الإعلام العربي امتد وهلل بطريق مباشر أو غير مباشر لمثل هذه الأعمال الدموية الشنيعة.

والديمقراطية وحدها هي التي دفعت الكونجرس الأمريكي لاستجواب وزير الدفاع وهيئة اركانه استجواباً مريراً ومُقرِعاً كاد أن يخلع الوزير من كرسيه عندما سُمح لمحتجين ومتظاهرين بدخول الكونجرس والمناداة باستقالة وزير الدفاع. الديمقراطية وحدها هي التي اتاحت كل هذا. وسجن ابو غريب أصبح شاهداً على الديمقراطية التي يتمتع بها الغرب والتي يريد أن يطبقها في العالم العربي.

-٢-

لقد شهد العالم العربي بعد الاستقلال وفي النصف الثاني من القرن العشرين سلاسل من الجرائم التي ارتكبت بحق الشعوب وبحق المثقفين المعارضين في سجون السلطات العربية، فمن جرؤ على كشف كل هذه الجرائم غير بعض الكتاب وبعض الروائيين من أمثال الروائي الراحل عبد الرحمن منيف في روايته (شرق المتوسط) و(الآن هنا) ورواية يوسف أدريس (العسكري الأسود) ورواية نجيب محفوظ (الكرنك) وغيرها من الروايات؟

من جرؤ على كشف ما كان يجرى في سجون عبد الناصر من اعمال وحشية وفظائع تفوق ما كان يفعله بعض المرضى من جنود التحالف في سجن أبو غريب؟ لقد حالت عهود الاستبداد والطغيان والديكتاتورية من كشف كل ذلك. من كان يجرؤ أن يكشف عن تعذيب الساجين السياسيين الذين قضوا في سجون حكم الأحزاب القومية عشرات السنين دون محاكمة، وقد قتلتهم الأمراض المستعصية بعد أن تم تعذيبهم أشنع تعذيب؟ لقد حالت عهود الاستبداد والطغيان والديكتاتورية من كشف كل ذلك.

من كان يجرؤ على كشف كل ما ارتكبه صدام حسين من جرائم يشيب لها الولدان؟ بل من كان يجرؤ على التنديد بكل ما فعله عبد الناصر وغيره من الديكتاتوريين العرب في الشرق والغرب في المعارضة من تذويب جثثهم بالأسيد (فرج الحلو مثالاً لا حصراً) وتسليط الكلاب عليهم ليفعلوا بهم ما تفعل الرجال بالنساء، كما قرأنا في بعض التقارير السرية؟

-٣-

لقد حالت عهود الاستبداد والطغيان والديكتاتورية من كشف كل ذلك. وما زالت جمعيات حقوق الانسان ومنظمات العفو الدولية تصدر تقاريرها الطويلة والموثقة التي تدين بها ما يجري في السجون العربية منذ نصف قرن ويزيد وحتى الآن ولا من مجيب.

فالإعلام العربي في معظمه المقروء والمسموع والمشاهد مشترى ومباع للأنظمة العربية التي تقوم بتعذيب المعارضة بفظائع أكثر مما ارتكبه بعض مجانين ومرضى جنود قوات التحالف في العراق. ولكن العرب لا يجيزون قتل العربي أو التنكيل به بيد أجنبي في حين انهم يجيزون قتل العربي والتنكيل به بيد عربي.

ألم يفتِ المفتون القوميون والدينيون بألف فتوى وفتوى بجواز